المجلد: 17 العدد: 02/ مارس 2022
ص: 657 - 663
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

أدب الطفل والخطاب السردي في الأدب الحديث والمعاصر

CHILD LITERATURE AND NARATIVE DISCOURSE IN MODERN AND CONTEMPORARY LITIRATUR

بلوحي عبد الجليل*[1]. بلقاسم محمد[2]

[1] جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان (الجزائر)، blouhi.m6o@gmail.com

[2] جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان (الجزائر)، kacem1962@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/05/05 تاريخ القبول:2021/05/30 تاريخ النشر: 2022/03/28

ملخص: الطفل يولد وهو مزود باستعدادات وإمكانات هائلة وعليه أن يتكيف مع هذا المحيط الخارجي بواسطة الآخرين؛ والخطاب السردي الموجه للأطفال بكل أشكاله وأنماطه جزء من الخطاب السردي العام وفرع منه، فلا فرق بينه وبين الخطاب الموجه للراشدين إلا في مراعاة خصوصية هذا المتلقي الصغير كالميل إلى الوضوح والتبسيط والتشويق والبعد عن الغموض والتعقيد.

الكلمات المفتاحية: الطفولة؛ أدب الطفل؛ الخطاب السردي؛ التلقي؛ بناء الذات؛

Abstract: The child is born with many preparations and capabilities, and he must adapt to the external environment by others; And narrative speech addressed to children in all its forms and patterns is part of the general narrative discourse, there is no difference between it and the speech addressed to adults, except in observing the privacy of this small recipient such as a tendency to clarity, simplicity, suspense and away from ambiguity and complexity.

keywords: Childhood, child literature, narrative discourse, receiving, self-building.

تمهيد:

الطفولة بجميع مراحلها المختلفة من المراحل المركزية في تكوين شخصية الإنسان، بحيث تشكل مرحلة الطفولة عند الإنسان أساس البنيان في التأسيس للشخصية، فشخصية الإنسان أشبه بالبنيان إذا سلم أساسه وبني على أساس صالح صلح بناء الشخصية وإذا فسد الأساس فسد بناء الشخصية وأصبح بنيانه واهي سريع الانهيار، ومن ثم ندرك أن الطفولة نقطة تحوّل مركزي ضمن المنعطفات الأساسية للشخصية فإن لقيت الرعاية و الاهتمام والعناية حسنت وإن أهملت ضعفت وهانت؛ ومن ثم ندرك أن الطفولة هي المرحلة المرتكز في تكوين الشخصية عند الإنسان، ففيها تتكون الشخصية والتي يكون لها أثر بالغ و انعكاس على السلوكات عند الإنسان، وهذا ما جعل علماء النفس التربوي وعلم النفس السلوكي يهتمون بمرحلة الطفولة ويخصصون

* المؤلف المرسل

لها البحوث من أجل التعريف بها وبأهميتها ومدى تأثيرها البالغ على تطور الشخصية في مراحلها نموها.

مرحلة الطفولة مرحلة للتّربية والتّعليم:

فيها يكتسب الطّفل العادات والمهارات والاتجاهات العقلية والاجتماعية...وتتميز هذه المرحلة بالاعتماد على الآخرين في تأمين الحياة كما تتسم بالقابلية للنمو والارتقاء ، ((فالطفل يولد وهو مزود باستعدادات وإمكانات هائلة وعليه أن يتكيف مع هذا المحيط الخارجي بواسطة الآخرين))1، لصناعة شخصيته المستقلة.

ومع أنّ الطّفولة تشكّل عالما قائما بذاته، إلاّ أنّ ما يصدق على الأطفال في عمر معين لا يصدق على أطفال آخرين في عمر آخر...، ((ومن هنا قسّمت الطفولة البشريّة إلى مراحل، واستتبع ذلك تقسيم ثقافة الطّفل وفقا لذلك، ويعود ذلك إلى أنّ للطّفل حاجات بيولوجية ونفسية مختلفة، وهذه الحاجات تختلف من عمر لآخر، وأنّ لكلّ مرحلة من مراحل نمو الطّفل خصائص معيّنة))2، وهذا يعني أن هناك تباينا بين شخصيات الأطفال في مستويات العمر المختلفة ، مبعثه تدرج النمو الجسمي والعقلي والنفسي والاجتماعي واللغوي لدى الأطفال .

إلا أن علماء النفس لم يتفقوا على تقسيمات موحّدة لمراحل نمو الطّفل، كما لم يتّفقوا على بدايات هذه المراحل ونهايتها، فمراحل النّمو المختلفة للطّفل تتداخل زمنيّا، كما تختلف باختلاف المناطق الجغرافية، والشّعوب والمجتمعات، والتّطوّر الحضاري، والتّقدّم العلمي وغيرها من المؤثرات . ولذلك فإن هذه المراحل هي مراحل تقديرية وليست حاسمة، بل يمكن أن ترتفع في مجتمع سنة أو سنتين ، وقد تنخفض في مجتمع آخر سنة أو سنتين ...3 بحسب خصوصية البيئية والثقافية والأنثروبولوجية، ومن ثم ويمكن تقسيم مراحل الطفولة كما يلي :

- ✓ مرحلة الطّفولة المبكرة.
- ✓ مرحلة الطفولة المتوسطة.
- ✓ مرحلة الطّفولة المتأخرة.

ويمكن أن نوجز الإشارة إلى هذه المراحل فيما يلي:

مرحلة الطّفولة المبكرة (أو مرحلة الخيال الإيهامي) [من سن (3 إلى 5) سنوات تقريبا]:

تسمى أيضا (مرحلة الواقعية والخيال المحدود بالبيئة)، وفي هذه المرحلة يكون خيال الطّفل حادّا وقوّة الخيال هذه تجعله يتخيّل الكرسي قطارا، والعصا حيوانا وهذا النوع من خيال التوهّم هو الّذي يجعل الطّفل في هذه المرحلة يتقبّل بشغف القصص والتمثيليات الّتي تتكلّم فيها الحيوانات والطّيور والجماد.

***مرحلة الطّفولة المتوسّطة أو (مرحلة الخيال الحر):[وتمتدّ من سنّ (6-8) سنوات تقريبا]:**

يأتي الطّفل إلى المدرسة الابتدائيّة ومعه صوره وألعابه الإيهاميّة، ففي عمر السّادسة والسّابعة يلعب مجموعة من الألعاب هي استمرار لخياله الإيهامي، يقبل عليها ويتركها بسهولة، "فتراه دركيّا أحيانا، ولصّا

أحيانا أخرى، يحيك الصوف ثمّ يقدّم وجبة العشاء"، إنّ لكلّ من الخيال الإيهامي وأحلام اليقظة وظيفة هامّة في مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائيّة، فهي تدعم نشاط الطّفل الحركي .ثمّ يبدأ بالتخلّي عن هذا الخيال الإيهامي مع زيادة قدراته واتساع خبراته وتضاؤل أوقات الفراغ بعد أن أصبح تلميذ مدرسة، ليحلّ محلّه خيالا واقعيا يهدف إلى معرفة الواقع.

مرحلة الطّفولة المتأخرة أو (مرحلة المغامرة والبطولة): وتمتدّ ما بين سن (9-12) سنة تقريبا: وما بعد ذلك:

وفي أوّل هذه المرحلة ينتقل الأطفال من مرحلة القصص الخيالية والحكايات الخرافية، إلى مرحلة القصص الّتي هي أقرب إلى الواقع، ((والقصص الّتي تناسب الأطفال هنا هي قصص المغامرات والرحلات والشجاعة والمخاطرة، وقصص الأبطال والمكتشفين، ومن القصص الّتي تناسب هذه المرحلة قصص الأبطال الحقيقيين" كصلاح الدّين الأيّوبي وخالد بن الوليد وطارق بن زياد...))4، والطفل في هذه المراحل السابقة الذكر يحتاج إلى ما يزيده معرفة بالحياة، ويعد أدب الطفل وسيطا تربويا ومعرفيا هاما يساير أفكاره ويطورها .

ويقصد بأدب الطفل كل ما يقدم للطفل ويقع تحت بصره ، وسمعه ، عن طريق الاختيار الدقيق من الكبار ، ويستهدف تربية الطفل وتنمية حسه وشعوره ، وتجنيبه كل المؤثرات السلبية وليست كل كتابة ذات لغة سهلة هي الكتابة الملائمة للأطفال، بل إن أدب الأطفال هو ذلك الذي يكون على صلة وثيقة بمعرفة الطفولة ذاتها ، ومعرفة طبيعتها ، وحاجاتها ، من حيث كونها مرحلة لها خصائصها التي تميزها عن غيرها من مراحل نمو الإنسان. ((فأدب الطفل مقيد بضوابط نفسية ، واجتماعية وتربوية ، ويستعين بوسائل الثقافة الحديثة في الوصول إلى الأطفال ، ويخاطب مشاعرهم ووجدانهم وينمي فيهم الجانب الإنساني (من حب ومودة، ورحمة ، وتواصل)))5، هذا الجانب الذي يعتبر جوهر اللبنة الأساسية لصناعة الشخصية.

الأشكال الفنية لأدب الطفل:

تتعدد الأشكال الفنية التي يصدر من خلالها ((أدب الأطفال سواء من حيث وسائط التعبير أو فنون التعبير ، فمن حيث وسائط التعبير هناك الكتاب ، والصحافة والمجلات ، والأفلام والبرامج الإذاعية والتلفيزيون وغيرها . أما من حيث فنون التعبير فهناك القصة والمسرحية والأشعار.))6 ولكلّ نوع من هذه الأنواع تأثيره في غرس مجموعة من الصّفات والقيم والمبادئ في نفوس الأطفال، وفي تفتح خيالهم الأدبي والعلمي، وتنمية ثروتهم اللّغويّة، وتعريفهم ببيئتهم وحياتهم الاجتماعيّة.

القصة:

تعدّ "القصّة" أحد هذه الفنون، ولعلها أقدم فن أدبي عرفه الإنسان منذ العهود الموغلة في القدم وهي فن أدبي أو أحدوثة مروية ، أو مكتوبة ، تهدف إلى الإمتاع أو

الإفادة، وإلى غرس الصّفات والقيم والفضائل والعادات في نفوس الأطفال، وقد عُرفت بأسماء عدّة، منها: الحكاية، الخرافة، الخبر.

الرواية:

في المفهوم الحديث، أضيف اسم جديد هو الرّواية، ونظر الكتاب إلى الكلمتين (القصة/ الرواية) على أنّهما تدلاّن على فنّ واحد، ولكنّ الرّواية تستعمل للدّلالة على الفنّ الحديث المقتبس من الآداب الأجنبيّة، والقصّة الّتي تشمل المعنى نفسه، ما تزال تحتفظ بمدلولها القديم، فهي تتناول حادثة أو مجموعة من الحوادث تقوم بها شخصيات بشريّة، أو غير بشريّة، 7 في إطار فنّي وبأسلوب راق يتنوّع بين السّرد والحوار والوصف.

نظرا لحساسية وأهمية مرحلة الطفولة ((فقد أحس العرب بضرورة إشباع احتياجات أطفالهم الوجدانيّة والعقليّة في مراحل نموّهم فوضعوا لهم التآليف القصصيّة، والحكايات الخرافيّة وغيرها من الحكايات.))8؛ فالطّفل ميّال بطبيعته إلى القصّة، يلذ له الاستماع إليها، ويشوّقه أن يقرأها، أو يشهد حوادثها تمثل أمامه، لأنّ في القصّة حركة وحياة تثير انتباهه، وتجدّد نشاطه، وقد يكون فيها خيال يستهويه ويوقظ وجدانه، ولأنّ للقصّة اتجاها مرسوما يأنس به الطّفل، ويجد لذّة ومتعة في تتبّعه وفهم أطواره

وللقصة –كذلك – وحدة موضوعية، ولها مبدأ ونهاية ، وهذا يساعد على تسلسل فكرتها ، وترابط أجزائها ، فيسهل على الطفل تتبعها دون أن يشتت ذهنه.ومما يثير الطفل في القصة أنه يجد نفسه ممثلة في أحد أشخاصها ، كأن يكون بطل القصة طفلا أتى من الحيل البارعة أو الأعمال العجيبة أو التصرفات المدهشة بما يثير في الطفل القارئ أو السامع إعجابا أو سرورا أو شفقة أو خوفا أو نحو ذلك من الانفعالات.((وتعدد الشخصيات ، وتباين الأعمال ، وتوالي الأحداث ، وترقب المفاجآت ، كل ذلك يجعل من القصة مصدرا مستديما لإثارة الأطفال وإمتاعهم وتسليتهم.))9، وصناعة شخصيتهم في جانبها العاطفي والفكري.

وعليه من الأحسن استغلال حبّ الطّفل للحكايات والقصص قصد تعليمه... فحين يسرد على الطّفل بعض القصص البطوليّة الّتي فيها بعض المواقف المشكّلة، يطلب من الطّفل أن يتصوّر الحلّ لبعض المواقف أو بعض العقد ولاشكّ في أنّ الطّفل سوف يعمل تفكيره في أكثر من حلّ خصوصا إذا كان بطل القصّة قد استحوذ على انتباهه، وبدأ الطّفل يتقمّص شخصيّته ومن خلال ذلك يستطيع الطّفل أن يتعوّد على أسلوب التخيّل، واستنتاج الحلّ المناسب للمشكلة... فهي تساعده على إنماء فكره وإكسابه الخبرات البنّاءة الّتي تساعد على تنشئته.10 وتكوين شخصيته التي تهيئه للاستقلالية الذاتية عن الآخر.

ويبدأ الطّفل استمتاعه بالقصّة منذ الوقت الّذي يستطيع فيه فهم ما يحيط به من حوادث وما يذكر من أخبار وذلك في أواخر السّنة الثّالثة من عمره.

وإذا كانت القصص يجب أن تُعلّم الطّفل فنّ الحياة لتساعده على النمو، فإن خبراته الذّاتيّة المحدودة بحدود زمانه ومكانه لا يمكن أن تسمح له بالنّمو المطلوب والشّخصيّة المتطوّرة المتفتّحة، ((ومن هنا تكون تجارب الآخرين من خلال القصص الّتي تقدّم له زادا يساعده على أن يتعرّف على أشياء لا تكاد تحصى... ومن خلال تفاعل الطّفل مع النّاس في الحكاية يتعلم وينمو))11؛ ومن ثم تحاول الحكاية بشكل عام إغناء حياة الطفل الداخلية فهي تتوجه إلى بنية الطفل النفسية والعاطفية وتخاطبه وتحدثه عن الضغوط الداخلية بشكل يتيح له تسجيلها في اللاوعي ، وفي الوقت نفسه هي لا تقلل من الصراعات التي يحدثها النمو ، ولكنها تُفهم الطفل بأنه يوجد حلول للصعوبات النفسية ، كما أنها تفتح أبعادا جديدة لمخيلة الطفل الذي يعجز بمفرده ودون معاونتها التوصل إليها 12؛ فالقصص التي نقدمها للأطفال تحاول أن تعلمهم التكيف مع الواقع والانحياز إلى المثل والقيم العليا .

ويتعارف أهل الأدب على أنّ عالم القصة عالم حكائي يؤدي فيه "السرد" دورا رئيسيّا نظرا لما ينبني عليه من تتابع في الأحداث وعلى الرغم ممّا أصاب القصة من تطور وتغير خاصة في تقنيات الحكي وطرق الطرح مشيا بها في سبيل الحداثة، إلاّ أنّ قصّة الطفل ما تزال تحافظ بإصرار على التقنيات القديمة، ومنها "السرد" الّذي كان سمة كلاسيكيّة في بناء القصة، نظرا لاعتماد عقليّة الطفل على البساطة والوضوح في تركيب الأشياء ووعيها.

ولا يستطيع السرد لوحده تنظيم الأحداث القصصية وتقريبها إلى ذهنية الطفل المتلقي، ولهذا السبب استدعى بناء القصة فنيات أخرى تتفاعل مع الخطاب السردي، ويعد الحوار القصصي إحدى هذه الفنيات، ففي تنويع الأساليب البنائيّة كسر للرتابة وبعث لنفسية المتلقي على درء الملل الناتج عن التعامل مع الظاهرة النمطية المكرورة. فقد تسأم نفسية الطفل المتلقي الخطاب القصصي المعتمد على أحادية السياق حين تتخذ من السرد أسلوبا له لتمرير الرسالة، ولذلك يكون الحوار هو البنية التنويعية الأكثر حضورا لكونه أكثر حيوية وواقعية باعتباره حضورا مسرحيا في النص القصصي.

وإذا كان أدب الكبار قد بدا مترفعا عن البنية الحوارية من باب الانتصار لقاعدة التلقين والتوجيه لكون الحوار بنية تستطيح لا تعقيد وغموض، ((إلاّ أنّه ميزة فنية ملازمة لقصة الطّفل، وعلّة ذلك أنّ خاصيّة المتسلسل المتساوق لا يترك أمرا إلاّ وتحدث فيه، وأن المنقطع قد يترك بعض الفجوات للقارئ أو السامع ليملأها من طبيعة تفكيره، ومعنى ذلك أنّ هناك ضربين من الحوار، حوار متسلسل متساوق يعزل

الطفل المتلقي عن أن يجد فرصة لإعادة تشكيل السياق القصصي، وآخر حوار منقطع يساعد الطفل على ملء الفراغات.))13، الفراغات التي تساهم في انصهار الطفل في بنية القصة.

والخطاب السردي الموجه للأطفال بكل أشكاله وأنماطه جزء من الخطاب السردي العام وفرع منه ، فلا فرق بينه وبين الخطاب الموجه للراشدين إلا في مراعاة خصوصية هذا المتلقي الصغير كالميل إلى الوضوح والتبسيط والتشويق والبعد عن الغموض والتعقيد .

فالطفل بطبيعته ميال إلى الأحاجي والحكايات والأساطير والخرافات ، ولهذا تعد السرديات من أبرز الخطابات الموجهة للأطفال ، فهي تحتل مكانة كبيرة في مكتبة الأطفال وتحظى باهتمام عدد كبير من المؤلفين لما لها من تأثير كبير على السلوك القيمي للأطفال ، ولما تتميز به من حيوية وتشخيص للمواقف والحوادث ، ((فهي بتخطيها أبعاد الزمان تنقل الأطفال عبر الدهور المختلفة ، كما تتجاوز بهم الحاضر إلى المستقبل ، وبتخطيها أبعاد المكان تنقلهم إلى مختلف الأمكنة ، وبتجاوزها الواقع تجعل الأطفال أمام حوادث ووقائع وشخصيات وأجواء خارج نطاق الخبرة الشخصية للأطفال،14 ومن ثم تهيء لهم الطوفان على أجنحة الخيال في عوالم مختلفة.

المسرح:

يعد مسرح الطفل وسيطا من وسائط نقل الثقافة والأدب إلى الأطفال مثله مثل معظم الوسائل الأخرى لأدب الأطفال يحرك مشاعر الطفل وذهنه وعقله؛ و((يهدف مسرح الطفل إلى الترويح عن الأطفال وتفريغ شحناتهم المكبوتة ، وتحريرهم بعض الوقت أثناء المسرح من القيود الاجتماعية المفروضة عليهم في البيت والمدرسة والشارع والمرافق العامة.))15و تكوين ثقافة في بعدها الاجتماعي و الثقافي والأنثروبولوجي.

والمسرحية نوع من أدب الأطفال ، فه كالقصة تحتاج إلى : موضوع معين ، وسلسلة من الوقائع والأحداث ، والشخصيات ، والأماكن ، وارتباطها بخشبة المسرح يفرض عليها إطارا خاصا يتحكم في تناول المؤلف لهذه العناصر ولغيرها من مقومات العمل المسرحي .

والفرق بين كاتب القصة وكاتب المسرحية أن كاتب القصة له من الآليات السردية التي تسمح له بالاستطراد و التفصيل في السرد متخذا من آلية الرسم الأداة السردية في بناء القصة، بينما نجد ذلك محصورا و مقيدا بعامل الزمن والجمهور في العمل المسرحي، إذ يراعي كاتب المسرحية الجمهور ويعمل على أن لا يطيل في المشهد المسرحي حتى لا يصاب الجمهور بالملل من طول جلوسه.

فالمسرحية لابد أن تعتمد على " قصة "، وهي التي أطلق عليها أرسطو "الحكاية "، ويطلق عليها النقد الحديث مصطلح "الحبكة "، فالمسرحية في النهاية : حكاية تروى بالحوار والحركة ، من خلال سلسة من المواقف المتصلة ما بين بداية ووسط ونهاية .

العمل المسرحي المكتوب للطفل أكثر تأثيرا وذو ثمرة تربوية إذا قارناه بالقصة، إذ نلحظ أن العمل المسرحي له من التأثير العميق و الفائدة الوافرة على الأطفال ونموهم الفكري والعاطفي يصاحب ذلك في أهم المراحل المكونة للطفولة.

الهوامش :

1- أحمد علي كنعان : أدب الأطفال والقيم التربوية ، دار الفكر – دمشق - ط .2 ، 1999 - ص. 11.

2- هادي نعمان الهيتي : أدب الأطفال (فلسفته، فنونه، وسائطه) - الهيئة المصرية العامة للكتاب -القاهرة د.ط - د.ت - ص .13 .

3- ينظر إسماعيل عبد الفتاح : أدب الأطفال في العالم المعاصر (رؤية نقدية تحليلية) - مكتبة الدار العربية للكتاب - القاهرة - د.ط - د.ت ، ص .18- 19.

4- أحمد نجيب : أدب الأطفال علم وفن - دار الفكر العربي - القاهرة ط.2 – 1994- ص 38-43.

5- ينظر إبراهيم محمد عطاء : عوامل التشويق في القصة القصيرة لطفل المدرسة الابتدائية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط.1 - 1994 - ص.64.-65

6- انشراح ابراهيم المشرفي : أدب الأطفال – مدخل للتربية الابداعية - ، مؤسسة حورس الدولية - الإسكندرية - ط . 1 - 2005 - ص . 48 .

7- ينظر يوسف مارون : أدب الأطفال بين النظرية والتطبيق (بحسب النظام التعليمي الجديد) - المؤسسة الحديثة للكتاب - لبنان - ط.1 ،2011 - ص 127 – 128 .

8- أحمد زلط : أدب الطفل العربي (دراسة في التأصيل والتحليل) - الاسكندرية - ط.1 – 1999- ص . 45-46.

9- عبد العليم إبراهيم - الموجه الفني لمدرسي اللغة العربية - دار المعارفت مصر - ط.8 - ص231.

10- ينظر كلير فهيم : أولادنا ... والمدرسة - جهاد للنشر والتوزيع - ط.1، 1998 - ص .54.

11- محمد السيد حلاوة - الأدب القصصي للطفل (مضمون اجتماعي نفسي)- مؤسسة حورس الدولية - الاسكندرية - د.ط - 2000 - ص . 7 - 8 .

13- مريم سليم : أدب الطفل وثقافته - دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - ط.1 - 2001 - ص .108 -109 .

14- عبد القادر عميش : قصة الطفل في الجزائر - دار الغرب للنشر والتوزيع - وهران - الجزائر - د.ط - د.ت - ص .159 – 174 .

15- طارق جمال الدين عطية وآخر: مدخل إلى مسرح الطفل - مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع- الإسكندرية - د.ط ، 2004، ص . 5.